توبة رمضانية

وكتبه

أبو هاشم السكندري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

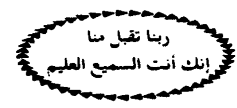






توبة رمضانية

بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

توبة رمضانية

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر، والشكر له جل وعلا وقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وصلاةً وسلامًا على سيد البشر، من ذاع بهديه الخبر وانتشر.

وبعد:

أخي الشاب الحبيب السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركةً طيبة من القلب إلى القلب مُفعمة بالمحبة الخالصة والأخوة الصادقة أُهديها إليك بالحب موصولة وبالود مشمولة. وبدايةً اسمح لي أخي الحبيب أن تفرغ نفسك لقراءة هذه الرسائل العجلى، وقد سطرتها لك بلا تكلف ولا تزلف وإنما هي النصيحة والذكرى، قال تعالى: **﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾** [الذاريات: ٥٥].

وقال سيد الناصحين وإمام المذكّرين ﷺ: **«الدين النصيحة...»** [رواه مسلم].

ومن هذا المنطلق خط القلم هذه الرسالة والتي أسأل الله عز وجل أن تلامس قلوبًا واعية وآذانًا مصغية وأن تكون لي ذخرًا عند الله يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال يفرض نفسه وهو لماذا الشباب بالذات هم همّ الدعاة والمصلحين، وسأترك الإجابة على سؤالك أخي الشاب مع هذه الكلمات الرقراقة العذبة من قلب ولسان داعية طالما خاطب الشباب وواجههم ووجّههم إلى الخير بأبوة حانية.

يقول الشيخ/ محمد الغزالي السقا – رحمه الله – :
« ولما كان الشباب من العمر وسيُسأل عنه الإنسان ما دام جزءاً من حياته، فإن الله أراد أن يبين أن للشباب حسابًا خاصًا، دون فترة الشيخوخة ودون فترة الصبا الباكر والمراهقة (أي أنه فترة القوة بين فترتي الضعف) فإن فترة الشباب تعتبر فعلاً أعمر الفترات وأملأنها بالخيال وأغناها

بالطاقات المادية والأدبية على حدٍّ سواء، وهذه الخواص التي حفت بفترة الشباب جعلت لهذه الفترة ولأصحابها مكانةً خاصة في موكب الإسلام على مر الدهور وكر العصور»[1].

فيا عدة الأمة وذخيرة المستقبل وأمل الإسلام، إياك وطول الأمل وغرور العمل وعافية البدن، إياك أن يحملك هذا على أن تنسى ربك وتنسى القبر... وتنسى موردك على الله، فهلمّ أخي الشاب وانفض عنك غبار المعاصي، وقل بلسان حالك ومقالك ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه: ٨٤].

فهلمّ أخي وضع يدك في يديّ ولنُقبل على الله، هلمّ ودع عنك الأمل الكاذب، وولي وجهك شطر المسجد، وافتح مصحفك، وارفع أكف الضراعة، إلى الله، واطمع في رحمة الله ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

(١) من «الشباب في موكب الإسلام» خطبة الجمعة بمسجد عمرو بن العاص بالقاهرة عام (٢٢/٦/١٩٧٦). خطب الغزالي المجلد الأول ص١٣٤.

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي

جعلت رجائي نحو عفوك سُلمًا

تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ومازالت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجودُ وتعفو منةً وتكرُّمًا

والله أسأل أن يثبتنا وإياك على الهدى وأن يلزمني وإياك طاعته وأن يعصمنا من شياطين الإنس والجن والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل.

ورحم الله من قال:

وكم من معاصٍ نال منهن لذةً
ومات فخلاها وذاق الدواهيا
تصير ملذات المعاصي وتنقضي
وتبقى تبعات المعاصي كما هيا

فيا سوءتا والله راءٍ وسامعٍ
لعبد بعين الله يغشى المعاصيا

هذا وستجد أخي الشاب الحبيب أني في هذه الكلمات مجرد ناقل متطفل على كتب أهل العلم والدعاة والمربين المخلصين، فإن كان توفيق فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه براء، وإني سائل أخًا كريمًا قرأ هذه الكلمات أن يذكرني بدعوةٍ بظهر الغيب.

وفقنا الله وإياك وسدّد خطانا وخطاك، وصلي اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ [البقرة: ١٢٨].



التوبة النصوح

لماذا تتوب ؟

إنها قضية ملحة تأتي نتيجة جهل الناس بالدين وجهلهم بالمعاصي التي يقترفونها... فإن معنى المعاصي معنى كبير يندرج تحته الكثير مما يظن الناس في عصرنا انه مباحًا، ورُبَّ تساؤل يطرح نفسه ويقوله شاب.. إن متعتي في السيجارة فلم أتركها؟! ... وآخر يقول: أهوى مشاهدة التليفزيون... فلم أدعه، وثالث يقول: أنا لا أُحب التقييد فلم أتقيد بالصلوات ... اليس على الإنسان أن يفعل ما يسعده والذي يسعدني تسمونه أنتم معصية، وأنا غير مقتنع بهذه التسمية ... فلمَ أتوب؟.

واليك أخي الشاب بعض الأسباب الداعية إلى التوبة:

١ - التوبة إلى الله هي السبيل للزوم الطريق المستقيم.

٢ - إننا في دار ابتلاء وامتحان ولابد من الهفوات، وفي

التوبة الرحمة بالناس والعفو، ولكن هذا ليس حجة للعصاة ﴿ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥].

٣ – امتثال أمر الله وثواب طاعته ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ [النور : ٣١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨].

٤ – الفرار من ظلم النفس إلى فلاحها ونجاحها ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ [الحجرات : ١١]، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾

[الشمس : ٧ – ١٠].

٥ – بالتوبة يطلب المسلم السعادة في الدارين فمهما عصى العاصي وفعل من الذنوب فمن المحال أن تجد عاصيًا سعيدًا وإن تظاهر بذلك أو ظهر بذلك لك، فالمعصية مذلة وحسرة ولوعة وأسى في القلب تكاد تحرق صاحبها حرقًا، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِئَايَٰتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٧]، واحذر أخي الشاب من توبة اللسان وضلال القلب، فتلك بضاعة لا تروج على الله سبحانه، فلابد من الصدق في توبتك وإنابتك.

٦ - بالتوبة يفر المرء من العذاب والوحشة وحُجب المعاصي فلاشكّ أن العاصي معذب بمعشوقته (وكل يغني على ليلاه) وربما شعر العاصي بالوحشة على أساس أنه في عذاب ولا يشعر به حد ولا يفهمه أحد[١].

شباب الجيل للإسلام عودوا
فأنتم روحه وبكم يسودُ
وأنتم سر نهضته قديمًا
وأنتم فجره الزاهي الجديدُ

---

(١) «كيف أتوب؟!» ص١٧ بتصرف. للشيخ/ محمد حسين يعقوب.

كيف أتوب ؟

ويُلحُ أخي الشاب الحبيب في الأذهان سؤال يؤرق الجفون ويذهب النوم من العيون ويفتح باب الظنون ويستجلب الشجون ... يتردد هذا السؤال في صدر كل شاب، ويعتصر قلبه، وخاصة إذا بدأ الشاب أول خطوات التوبة والإنابة إلى الله ... كيف أتوب؟ ... كيف أتوب؟

والجواب أخا الإسلام سهل يسير، ولكن أري الله من نفسك خيرًا وإليك أخي الحبيب بعضًا من السبل التي تبدأ بها على طريق الهداية والنور، فهاكها وأدب بها نفسك وأحيي بها قلبك.

١ - ألزم نفسك دائمًا الوعظ والتذكير وذكّر نفسك بما فعل الله بالأمم العاصية الطاغية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

ذكر نفسك بالموت والبلى وإنك لا شك عن هذه الدنيا الفانية مرتحل وعلى الدار الباقية مقبل.

أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على بابك ينتظرون.. وقد آلوا على أنفسهم بالأيمان المغلظة ألا يبرحون؟! ... يا نفس أما علمت أن الموتى يتمنون الرجعة؛ لينشغلوا بالعمل الصالح ويستدركوا ما فرط منهم؟ فأنت يا نفس في أمنيتهم، فاعملي.. يا نفس ويحك إن الموت موعدك! .. والقبر بيتك!! والتراب فراشك!! .. والدود أنيسك!! والفزع الأكبر بين يديك.

يا من بدنياه اشتغل
قد غره طول الأمل
أو لم يزل في غفلة
حتى دنا منه الأجل
الموت يأتي بغتة
والقبر صندوق العمل

ولو أنا إذا متنا تركنا
لكان الموت راحة كل حي
ولكن إذا متنا بعثنا
ثم نسأل بعده عن كل شيء

٢ – إعزل نفسك عن مواطن المعصية ومراكب الشهوات والشبهات، فشروط التوبة الإقلاع عن المعصية أولاً، والندم على فعلها ثانيًا، ثم ثالثًا العزم على عدم العودة إليها أبدًا، فمتى فُقِدَ شرط من هذه الثلاث لم تصح التوبة، ولاشك ان من العزم على عدم العودة إلى تلك المعصية مجانبة مكان المعصية والهروب منه ولابد أن تكون التوبة قبل الغرغرة ومباشرة الموت وبرد المظالم إلى أهلها، إذا تعلقت بحق آدمي.

٣ – من أشد ما يهوي بالتوبة ويوردها موارد الهلكة ويُعجل بفسادها وإفسادها قرناء السوء وسعاة الفتنة؛ فالصاحب ساحب والمرء مع من أحب، فاي خيانة أعظم من

صديق سوء يبصرك بالحرام ويدلك عليه ويجعل لك الحق باطلاً والباطل حقًا والمنكر معروفًا والمعروف منكرًا، ولهذا كان أدلّ الناس على الناس الصاحب على صاحبه، قال رسول الله ﷺ: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» [رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٩)].

وزاد الأمر إيضاحًا وإفصاحًا قوله ﷺ: **«مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»** [متفق عليه]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تصاحب الفاجر فإنه يزين لك فعله، ويود لو أنك مثله»، وقال بعض السلف: «إياك ومجالسة الأشرار؛ فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري».

٤ – قِف مع نفسك وقفةً صادقة، واستحِ من الله حق

الحياء، فلا خير في عبد لا حياء له وقل لنفسك: كم يا رب سترت العيوب وغفرت الذنوب ولو شئت هتكت الستر وفضحت الأمر... سبحانك يا رب ما أحلمك على من عصاك.. سبحانك سبحانك على حلمك بعد علمك وعفوك مع قدرتك.

٥ – حاول أن تدمن معاقبة النفس تارة بمنعها من فضول المباحات أو القسوة على نفسك أحيانًا، فكم من النفوس القسوة لها رحمة، والرحمة لها قسوة، ورب محبوب في مكروه ومكروه في محبوب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٦ – عالج النفس بالوسائل النبوية التربوية، فهي من أنجح الوسائل وليس الخبر كالمعاينة، فعليك بالصوم أخي الشاب فهو قاطع لفوران الشهوة وثورة الغريزة والصوم هو مدرسة الأخلاق الكبرى فظاهر التعذيب وباطنه التأديب فعليك به فإنه لا عدل له، يقول ﷺ: «يا معشر الشباب،

من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له».

٧ – كن صاحب همّة عالية وسابق الريح في طاعة ربك وخذ منك لك وسارع وبادر وسابق فالطاعات أكثر من الأوقات والبركة في العمر والعمل من عند الله فلا تركن ولا تتخاذل، فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

إذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام

٨ – تذكر دائمًا أخي الشاب الحبيب دائمًا الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، وكأنهما رأي العين، لو قيل للإنسان ما قيل ترهيبًا وترغيبًا، ما كان التذكير شيئًا إلا أن يُقرَن ذلك بالتذكير بالجنة بأحوالها وبالنار وأهوالها، فكن أخي الشاب الحبيب بين الرجاء والخوف، والله مع المتقين.

٩ – الممنوع مرغوب، والنفس توّاقة إلى السوء مشتاقة،

فلابد من تهذيبها وتاديبها، لابد من تحطيم أصنام الهوى وأوثان الباطل، لابد من نصرة الحق، وإن طال ليل الظلم، ولابد للعبد ان ينجو من الرق فحطم الأصنام (الزنا – التدخين – العادة السرية – النظرة المحرمة – الغناء . . .) فمن قدر على نفسه كان على غيرها أقدر، فجاهد في الله أُخيّ، وإياك والراية البيضاء . . إياك والخضوع والخنوع .

وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه
فيطحن لا يعنيه حلوٌ ولا مرّ

جاهد في الله أُخيّ بيمناك مصحف وفي صدرك يتردد قول الحق يهزك بعنف وبشمم وإباء واستعلاء على الباطل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١] .

وما هي علامة قبول توبتي؟

سؤال يتبادر إلى الأذهان وربما لعب الشيطان دوره في هذه، فالقى في روع الشاب أو الفتاة أنّ هذه التوبة غير

مقبولة أو أنها مصطنعة أو ... وأو .... فيحتار الشاب ويحاول جاهداً أن يتعرف على علامات قبول التوبة وهاك بعضاً من هذه العلامات وإن كانت قد تختلف من شاب لآخر ومرجع ذلك للإدراة وصدق التوبة من أساسها من هذه العلامات أخي الحبيب:

١ - أن يكون حالك بعد التوبة خير مما كان قبلها، وإياك أن تنكص على عقبيك وتنتكس وترتكس،فإن العودة إلى المعصية بعد التوبة من علامات نقض العهد والإخلاف بالوعد وعلامة مميزة للمنافق.

فاحذر أخي الحبيب وأنت أدرى بنفسك «أهل مكة أدرى بشعابها» فقارن حالك بعد توبتك هل حافظت على الصلاة في جماعة في المسجد؟! هل غضضت بصرك عن الحرام؟! هل تحرص على صيام التطوع؟! هل تخرج صدقات في سبيل الله.. وهكذا قسْ نفسك بميزان الطاعات والقربات.

٢ - هل شعرت بقشعريرة الرهبة وهل علاك الخوف من أن تعود إلى المعصية، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، واستمع لهذه الآيات بأُذن قلبك ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

٣ - كذلك من علامات التوبة (التوبة النصوح): أن العبد التائب يجد انكسار في قلبه، بين يدي مولاه، وكان عطاء السليمي يقول: «رب ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحدتي وطول مقامي غداً بين يديك.

اعلموا يا شباب المسلمين أن التوبة ليست كلامًا.. أبدًا ما كانت التوبة كلامًا؛ فالتائب منكسر القلب، غزير الدمع، حيّ الوجدان قلق الأحشاء، صادق العبرة، جمّ المشاعر، جياش الفؤاد، مشبوب الضمير، فقير من الكبر، مُقل من الدعاوى، بين الرجاء والخوف، بين السلامة والعطب، بين

النجاة والهلاك، في قلبه حرقة، وفي وجدانه لوعة، وفي وجهه أسى، وفي دمعه أسرار.. مجرب ذاق العذاب في البعد عن الله، وذاق الحلاوة في طاعة الرحمن..

التائب قد نحل جسمه الصيام.. وأتعب قدمه القيام.. حلف بالعزم على هجر المنام.. فبذل لله جسمًا وروحًا وتاب إلى الله توبة نصوحًا (١).

من أين أبدأ؟ (فاتحة التوبة):

مازال سيل الأسئلة يتوارد تترى على الأذهان وخاصة عندما يذوق الإنسان المسلم حلاوة الطاعة ولذة المناجاة، كما يحدث ذلك مثلاً في رمضان، الناس يعيشون روحانية لا تتكرر طيلة شهور السنة، ولكن إذا خرج رمضان من بين أيدينا عاد الكل يعصي وكأن رب رمضان غير رب سائر الشهور، فسرعان ما تفتر الهمم وتخور القلوب، وهكذا يبدأ الشاب المسلم يترنح بين سوف ويا ليت وما هو إلا

---

(١) «كيف أتوب؟!» ص١٣٩ للشيخ محمد حسين يعقوب – حفظه الله –.

الاغترار بحلم الله وعفوه.. فماذا أفعل كلما أتوب أترك سماع الأغاني ثم أعود؟! أُقلع عن التدخين ثم أعود؟! أترك الغيبة والنميمة ثم أعود، وتقول أخرى أتحجب وأستر نفسي ثم أهتك ستر ربي عليَّ؟! أين السبيل.. أين الخلل..؟!.

والحقيقة أخي الشاب الحبيب أن توبتك تحتاج إلى توبة.. ولعلنا سنذكر طرفًا من هذا في كلامنا عن علل التوبة، ولكن يعود السؤال ويفرض نفسه ويلح علينا كيف وأين ومتى أبدأ التوبة..؟!.

إذا أردت البداية أخي الحبيب قِفْ بدايةً وقفة صادقة، وانظر من تعاهد وانظر من تعد؟! .. الأمر ليس بصعب ولكنه يحتاج إلى الصدق، و أعظم ما يزيد العبد المسلم جرأة وجسارة على المعصية واستهانته بقدر مولاه الاستخفاف بامر الله والاغترار بحلم الله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الحج: ٧٤].

ولقد أحسن من قال: لا تنظر لصغر المعصية، ولكن انظر لعظمة من عصيت.

آهٍ ثم آهٍ.. إنه الله.. الذي لو شاء لأمر الشمس فأحرقت، والأرض لابتلعتك والبحار فأغرقتك. سبحانك يا ربي عصينًا على جهل منّا وتقصير... سبحانه ما عصيتك ربي استخفافًا بشأنك ولا جرأة على أمرك ونهيك، ولكن سولت لي نفسي، وغرّني سترك المرخي عليَّ.. سبحانك.. ما أحلمك، واستمع أخي الحبيب إلى هذا الحديث الدال على حلم الله ورحمته بالخلق جميعًا

قال رسول الله ﷺ: **«ما من أحدٍ أحلم من الله، يجعلون له الولد ويرزقهم ويُعافيهم»**.

فالبدار أخا الإسلام وهلمّ إلى الله وأحسن المسير إلى الله، واعلم بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، واعلم أن هذه الوقفة وتلك البداية هي خطوة الأمل على طريق الهداية؛ فعض على هذه الطريقة المباركة (الهداية) بالنواجذ وذد

عنها بالنفس والأنفاس وادعُ من أعماق قلبك أن يثبتك الله ويربط على قلبك.

واعلم – يا رعاك الله – أن بداية الغيث قطرة، والميل خطوة، فاقبل على الله وخليّ عنك التسويف وغظْ الشيطان وأعوانه، والمنافق وإخوانه، والعدو الكافر وأقرانه، وردد هذه الآية المباركة واملأ بها قلبك خشيةً وإنابة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾ [الشورى: ٢٥].



تنبيهات مهمة على طريق التوبة

١ - قد يعزم العبد عزمًا أكيدًا على عدم العودة إلى الذنب ثم تضعف نفسه ويغلبه شيطانه، فيقع في الذنب مرة أخرى، وقد ييأس العبد من طريق الله عز وجل، ولا يجد إلى طريق الشيطان، وبعض العلماء يرى أن العبد إذا تاب ثم عاد في الذنب فإن توبته باطلة، ولكن الأكثرون على عكس ذلك، قال رجل للحسن: أما يستحي أحدنا يذنب ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلا تملوا من الاستغفار.

٢ - الذنوب تتفاوت جرمًا وحرمةً، فهل إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل التوبة إلى الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟!،

قالت طائفة من أهل العلم: يرجع إلى درجته التي كان عليها؛ لأن التوبة تجبُّ الذنب وتمحوه بالكلية والبعض الآخر يرى أنه لا يعود إلى نفس الدرجة بل يرتقي؛ لأنه كان في صعود عطله هذا الذنب؛ فعليه أن يعود إلى درجة أعلى منها وهذا مثل لذلك رجلٌ مسافرٌ يقطع طريق طويلة فإذا به بارضٍ ظليلة وماء عذبٍ، فحدّثته نفسه ان قف قليلاً، فاسترح وتزود لسفرك فإذا هو في راحته ومقيله حتى أخذه النوم وفاته الوقت، فاستيقظ فوجد الوقت ضاق فواصل سيره، ولكن على درجة من الإسراع والإجتهاد أكبر مما كان عليه قبل راحته ووقوفه، فكذلك مثل من أوقفه شيطانه، وسحبه إلى دنيا مزخرفة أو شهوة محرمة، فالشيطان يزين للعبد النعيم جحيمًا، والجحيم نعيمًا، والمنكر معروفًا والمعروف منكرًا.. وهكذا.

٣ - هل إذا كانت التوبة في حق آدمي وكانت غيبة أو

نميمة أو مالاً مغتصبًا أو حصّل مالاً حرامًا، هل يلزم من ذلك الإعلام برد المظالم؟ إذا كان التائب مغتابًا ونحوه، فإنه يُعلم من اغتابه لاشتراط الإمامان مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله - ذلك واحتجوا بقول رسول الله ﷺ: **«من كان لأخيه عنده مظلمة من مال وعرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»** [رواه البخاري (٥ / ١٠١) والترمذي (٩ / ٢٥٤)]. والقول الآخر: أنه لا يُعلم المغتاب وإنما يستغفره له ويدعو له ويذكره في الموطن الذي اغتابه فيها بضد ما قال، وقد يكون في إعلامه من المفسدة الكثير، وشرع الله مصلحة كله وإعلامه مفسدة محضة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به (١).

٤ - أما إذا كان المال مغتصبًا فعلى التائب رد المال إلى

(١) «تزكية النفوس» د/ أحمد فريد - حفظه الله -، طبعة دار الإيمان.

أربابه، فإذا تعذر عليه رد المال لأصحابه لجهله بهم أو لغير ذلك من الأسباب فعليه أن يتصدق بهذا المال عن أربابه، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق أخذوا من حسناته بقدر أحوالهم أو رضوا بما صنع وأجورها لهم، وإذا لم يرضوا وأخذوا من حسناته، فإن أجر الصدقة يكون له ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً اشترى من رجلٍ جارية ودخل يزن له الثمن فذهب رب الجارية، فانتظره حتى يئس من عودته، فتصدق بالثمن، وقال: اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له، وإن أبى فالأجر لي، وله من حسناتي بقدره.

٥ – أما من قبض مالاً حرامًا كبائع الخمر والمغني وشاهد الزور، ثم تاب وبيده هذا المال الخبيث فقالت طائفة من أهل العلم: يرد المال إلى مالكه؛ لأن قبضه له لم يكن بإذن من الشارع ولا حصل في مقابله نفع

مباح. وقالت طائفة أخرى وهو أصوب القولين: بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالاً استعان به على معاصي الله؟ وهكذا الأمر لمن اختلط ماله الحلال بمالٍ حرام وتعذر عليه أن يميز الخبيث من الطيب، فإنه يتصدّق بقدر المال الحرام ويطيب باقي ماله والله أعلم.

٦ – أن توبة العبد بين توبتين: التوبة الأولى أن الله يأذن له فيتوب، ثم يعزم العبد توبته، ثم يوفقه الله إلى هذه التوبة، وتأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨]، فإن الله أخبر أن توبته عليهم سبقت توبتهم، ولهذا كان الله هو المعد والممد لهذه التوبة سبحانه وتعالى.

٧ – أن كل من لم يتب إلى الله فهو ظالمٌ لنفسه أو لغيره، شاء أم أبى، وهذا مدلول قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

٨ - أن العبد التائب لو تدبر وتمعن في توبته والأسرار التي بينه وبين الله فيها لازداد شوقه للقاء ربه سبحانه وتعالى، فلو تأمل التائب كيف ستره الله وعافاه في بدنه قبل وعند وبعد المعصية، لو تأمل العبد ذلك لعلم عظمة فضل الله عليه ومنّه، فكم من فضيحة سترها وكَم من معصية غفرها، سبحانك يا ربنا ما أحلمك على من عصاك وخالف أمرك نسألك رضاك بعد سخطك وحلمك بعد قدرتك وعفوك بعد سطوتك .

إلهي علمت سري وعلانيتي فلم تفضحني، سبحانك سبحانك، اللهم سامحنا واعفُ عن من ظلمنا واعطِ من حرمنا، واجعلنا وصّالين لمن قطعنا، اللهم زكِّ نفوسنا بطاعتك وارزقنا وأهلينا محبتك، هوّن علينا مصابنا وخفف عنّا آلامنا.

اللهم يا غافر الذنب، يا قابل التوب، اغفرْ ذنوبنا، واستر

عيوبنا، واقبل توبتنا، واغسلْ حوبتنا، اللهم اغفر لنا ولمن له حقٌّ علينا ولوالدينا وللمسلمين أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه
أبو هاشم السكندري
غفر الله له ولوالديه

